الشكوى إلى الله تعالى في الشعر العربي المعاصر

ياسمين أختر

إن الشعر مرآة صادقة تعكس صورة حياة العرب الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فهو الشاهد العدل والحجة القاطعة، وأصح علم عندهم، لأنه ديوان علمهم، كما قال عمر بن الخطاب: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه صلى الله عليه وسلم"[١] وقال ابن عباس: "إذا قرأتم شيئا من كتاب الله تعالى ولم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب"[٢].

والشكوى غرض من أغراض الشعر، وهي صورة تعكس ما يختلج في قلوب البشر، لتؤكد ضرورة فطرية، صبغ الله عباده بها، فمن ذا الذي لا يتألم ولا يشكو، وحتى الأنبياء شكوا، الأنبياء الذين جذبتنا شكواهم النبوية العظيمة، لأنها كانت لله، كما فعل نبينا يعقوب عليه السلام، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٣] وشكا النبي أيوب عليه السلام من الشيطان: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ...﴾[٤]، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلّة حيلتي"[٥]، ثم يأتي بعد الأنبياء في التأثير بالشكوى الشعراء الذين عبروا عن الإنسانية وآلامها، بعضهم

١- أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، المحقق: أحمد محمد الخرّاط، دارالقلم، دمشق، بدون تاريخ، ج ١، ص ١٧٦٩.

٢- آلوسي، **روح المعاني**، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج ١١، ص ٢٢٤.

٣- سورة يوسف، الآية: ٨٦.

٤- سورة ص، الآية: ٤١.

٥- أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، **معالم التنزيل**، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج ٧، ص ٢٦٥. وانظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، المحقق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ج ١٦، ص ٦١١.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

محقّ في الشكوى وبعضهم يبالغ فيها، والشعراء لسان حال المجتمع فإذا وجدوا ضيما تحّرك لسانهم بشعر الشكوى، وهذا الشعر يكون أدق في التعبير عما يختلج في نفوسهم وأوقع أثرا، ولطالما شدّني هذا النوع من الشعر لصدقه وحرارته فأردت أن أسبر أغوار هذا النوع من الشعر كي أروي ظمأ نفسي، ولاسيّما في النصف الأول من القرن العشرين، حيث كثرت الشكوى نتيجة للظروف التي عاشتها الإنسانية خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. فبثوا شكواهم بين ثنايا أشعارهم وكان معظمها يهز الوجدان ويحرك الضمير وتلك هي إحدى وظائف الفن الشعري العظيم.

تتنوع قضايا الشكوى ومباحثها بتنوع الآلام لدى البشرية ـ المشاكل من الفقر ومن سقام ومن الكوارث الطبيعية ـ ومن هنا تبدو أهمية البحث في تسليط الضوء على موضوعات الشكوى، وأنواع الناس فيها، لمن كانت شكواهم ومم اشتكوا؟ وأتناول أهم شعراء العرب الشاكين في النصف الأول من القرن العشرين لأقوم بدراسة معمقة للخصائص الفنية والنقدية لشعر الشكوى، ثم أبين النتائج المتوقعة في نهاية البحث.

حدود البحث:

يشمل هذا البحث النقاط التالية:

١- من حيث المادة يدور حول نتاج اثني عشر من شعراء العربية المرموقين، وهم: الشاعر جبران خليل جبران، أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، أبو القاسم الشابي، إبراهيم طوقان، معروف الرصافي، خليل مطران، إبراهيم ناجي، عبد الرحمن شكري، إيليا أبو ماضي، عباس محمود العقاد، ومحمد مهدي الجواهري.

٢- من حيث الزمن يحتوي على النصف الأول من القرن العشرين.

٣- من حيث المكان ينحصر في البلاد العربية وهي: مصر، لبنان، فلسطين، تونس، وعراق.

٤- من حيث الدراسة يضم الموضوعات وطرق التعبير والأساليب والخصائص.

المنهج المتبع في كتابة البحث:

بعض المناهج تتشابه لدى كثير من الباحثين وقد حاولت أن أختار لنفسي منهجا واضحا أسير عليه في البحث وهو يتلخص في: أنني قمت بدراسة موضوعات الشكوى دراسة موضوعية، وطرق التعبيرعنها، ودراسة فنية. كما أنني حاولت أن أكتفي بالشواهد الشعرية لأهم شعراء العرب في النصف الأول من القرن العشرين للقيام بدراسة معمقة للخصائص الفنية والنقدية لشعرالشكوى، ثم ذكرت النتائج المتوقعة في نهاية البحث.

التمهيد:

سأتناول في التمهيد مفهوم الشكوى لغة واصطلاحا وطرق التعبير عن الشكوى.

أوّلا: مفهوم الشكوى:

الشكوى تعبير عن آلام الإنسان المكنونة وأحزانه المؤلمة ومشاكله التي يواجهها في الحياة نفسيّة كانت أو اجتماعية. فأدرس أوّلا مفهوم الشكوى لغة لإدراك دلالات الشكوى المختلفة من الاشتقاقات المتعددة، وثانياً أتناول مفهوم الشكوى اصطلاحا في ضوء آراء العلماء والأدباء.

أ- مفهوم الشكوى لغة:

يقول الخليل الفراهيدي(٦): "شكو، الشكوى، الاشتكاء تقول: شكا يشكو شكاة، ويستعمل الاشتكاء في الموجدة والمرض. هو شاك: مريض، وقد تشكى واشتكى. وشكا إلى فلان فلانا، فأشكيته، أي: أخذت ما يرضاه. والشكو: المرض نفسه"(٧). ويزيد الجوهري(٨): "أشكيته أيضاً، إذا أعتبته من شكواه ونزعت عن شكايته وأزلته عما يشكوه؛ وهو من الأضداد. قال الراجز:

تمد بالأعناق أو تلويها وتشتكي لو أننا نشكيها"(٩)

ويذكر الزبيدي(١٠) مضيفا أن "الشِّكايَة معناها الإخبار بضعْفِ حالِهِ. وشَكَى فلاناً: إذا أَخْبَرَه

٦- هو الخليل بن أحمد الفراهيدي أبو عبد الرحمن الإمام، صاحب العربية، ومنشئ علم العروض، البصري، أحد الأعلام. ولد في البصرة عام ١٠٠هـ ونشأ عابدًا لله تعالى، مجتهدًا في طلب العلم، واسع المعرفة، شديد الذكاء. توفي سنة ١٧٠هـ. انظر: الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٨، ٩، ١٠. وابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دارصادر، بيروت، بدون تاريخ، ج ٢، ص ٢٤٤.

٧- الخليل بن أحمد الفراهيدي، **العين**، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ، في مادة "شكو"، ج ٥، ص ٣٨٨.

٨- هو أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، ابن أخت الفارابي، بدأ دراسته عند خاله في موطنه "فاراب" ومات سنة ٣٩٣هـ. وانظر: كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، دارالمعارف، ١١١٩ كورنيش النيل، القاهرة، الطبعة الخامسة، بدون تاريخ، ج ٢، ص ٢٥٩.

٩- إسماعيل بن حماد الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، من مادة "شكا"، ج ٦، ص ٢٣٩٤.

١٠- محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي أبو الفيض الملقب بمرتضى، من علماء اللغة والحديث والرجال والأنساب، ومن كبار المصنفين. من مصنفاته: **تاج العروس في شرح القاموس**، **إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء العلوم** للغزالي، توفي سنة ١٢٠٥هـ. انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م، ج ٧، ص ٧٠. وعمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١١، ص ٢٨٢.

بسُوءِ فِعْلِه به". ثم ينقل قول الرَّاغب: "إن الشِّكايَة إظْهارُ البَثِّ، يقالُ شكَوْت واشْتكَيْت، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(١١) وقوله تعالى: ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(١٢) وأَصْلُ الشَّكْو فَتْح الشَّكْوَةِ وإظْهارُ ما فيها، وهي سِقاءٌ صغيرٌ، وكأنَّه في الأصْلِ اسْتِعارَةٌ كقَوْلِهم: بَثَثْتُ له ما في وِعائي، ونَفَضْتُ له ما في جرابي، إذا أظْهرْتَ ما في قَلْبِكَ"(١٣). أما أصحاب **المعجم الوسيط** فيقولون: "اشتكى: شكا ومرض واتخذ الشكوة. واشتكى إليه: لجأ إليه ليزيل شكواه وفي التنزيل العزيز: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(١٤)، تشاكى القوم: شكا بعضهم إلى بعض، وتشكى: اشتكى، والشكاة: الشكوى والمرض والعيب، والشكوى: التوجع من ألم و نحوه"(١٥).

ويظهر من كل هذا الكلام أن جميع الاشتقاقات لكلمة "الشكوى" تؤدّي معنى: الوجع والألم والحزن والمرض والعيب وإظهار ما يُبَثُّ في الإنسان و إخْبَار بسُوءِ الفِعْلِ به إلا كلمة "أشكى" بإضافة الهمزة، فهي تفيد إزالة هذا الحزن والهمّ بما يرضى به الإنسان.

ب- مفهوم الشكوى اصطلاحا:

وقد ذكرت في هذا البحث مفهوم الشكوى لغة، ولكن اللغويين لم يعتنوا بالتعريف الاصطلاحي لها وإنما الباحثون المعاصرون وضعوا تعريفات الشكوى في إطار محدد. إن الشكوى ميل فطري عند الإنسان يلجأ إليه عند الشعور بالألم أو الحزن أو اليأس وما يوافق ذلك من إحساس بالاضطهاد أو الطغيان أو الظلم أو الاضطراب في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية، ويخرج الإنسان هذا الشعور لدفع الظلم الواقع عليه من الأفراد أو من المجتمع.

عرّف الأستاذ بيان علي عبد الرحيم: "الشكوى هي تعبير عن الحرمان والإحساس بالظلم،

١١- سورة يوسف، الآية: ٨٦.

١٢- سورة المجادلة، الآية:١.

١٣- مرتضى الزَّبيدي، **تاج العروس من جواهرالقاموس**، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، من مادة "شكو، شكى"، ج ٣٨، ص ٣٨٨. انظر: الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، كارخانه تجارت كتب، آرام باغ، كراتشي، ص ٢٦٦.

١٤- سورة المجادلة، الآية:١.

١٥- إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، **المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية، مادة "شكو"، ج ١، ص ١٠٢١.

وتظهر عندما تتعقّد ظروف الإنسان"[١٦] وقسّم الشكوى إلى قسمين: الشكوى الخاصة والشكوى العامة. فالشكوى الخاصة: "تتناول المسائل الخاصة إذ يشكو الشاعر مما يتصل بفقدان الشباب أو الآمال غير المحققة وغيرها، وأحيانا قد تخرج من خصوصيتها إلى نطاق إنساني واسع حيث إنها مشكلة تواجه البشر جميعا. أما الشكوى العامة: فهي تضمّ شكوى الزمان وذمّ الدنيا"[١٧].

وكذلك "يقدّم لنا الباحث الآخر الدكتور محمد حسين الأعرجي نظرة عامة حول مفهوم الشكوى ويقسمها إلى قسمين أيضاً: الشكوى الخاصة والشكوى العامة. **أولاً**: الشكوى الخاصة: وهي تعنى بالإنسان وما يعانيه من مشاكل ذاتية لا تتعدى دائرة شيخوخته وهجر حبيبته وما إلى ذلك. **ثانياً**: الشكوى العامة: ومن مظاهرها شكوى الزمان وتغير أحواله بعد أن ضاعت مقاييسه، واضطربت موازينه، وقد يكون الفقر الناجم عن التدهور الاقتصادي سبب شكوى الشاعر"[١٨].

وإن الإنسان خلق في كبد، وهو لا يستقر في حالة واحدة، بل يكون مضطرا أن يلجأ إلى الشكوى لما ينتابه الألم والمرض والظلم والأوجاع، لذا تعكس إحساسات المرء الحزينة كالضعف والانكسار والظلم، وتزيد الشكوى والحسرة في الأحوال المؤلمة.

"أما مجال الشعر فهو الشعور، سواء أثار الشاعر هذا الشعور في تجربة ذاتية محضة كشف فيها عن جانب من جوانب النفس، أو نفذ من خلال تجربته الذاتية إلى مسائل الكون، أو مشكلة من مشكلات المجتمع، تتراءى من ثنايا شعوره وإحساسه"[١٩].

و "الشكوى فن من فنون الشعر الوجداني العميق، وهي بعد ذلك لون من ألوان الشعر المتجدد لاتساع نطاقها بين الشعراء نتيجة للحياة الاجتماعية القاسية في ذلك العصر، وخاصة شكوى الزمان أو "الدهريات" وهناك من فروع هذا الفن شكوى الأهل والأصدقاء، وندرة الوفاء، واختفاء المعروف بين الناس"[٢٠]. فالشكوى أبرز الفنون الشعرية وأصدقها لتصوير عواطف الناس المشحونة بالتعب وقضايا إنسانية ومشاهد اجتماعية وهموم بشرية.

١٦- بيان علي عبد الرحيم، مقالة "شعر البصرة في القرن الرابع الهجري"، ص ١،
http://www.basrahcity.net/pather/report/141.html

١٧- نفس المرجع والصفحة.

١٨- جريدة عراقية: **طريق الشعب**، العدد ٨٧، السنة ٧٣، الأربعاء ١٢ كانون الأول ٢٠٠٧م، ص ٧.

١٩- محمد غنيمي هلال، **النقد الأدبي الحديث**، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٥٦.

٢٠- مصطفى الشكعة، **فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين**، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨١م، ص ٦٩.

ثانياً: طرق التعبير عن الشكوى وأنواعها:

إن الإنسان كائن اجتماعي يحب الأشياء ويكرهها، ويفرح عند حالات الفرح ويحزن عند حالات الحزن، ويرجو الطيبات ويأمل الخير ويرضى بالسعادة. فلا يبقى على حال واحد بل تختلف أحواله الظاهرة بالتأثر من الأشياء والأحداث حوله والتجاوب منها قلّة وكثرةً وسرعةً وبطأ. والشكوى هي سعي جاد تقضي على الضعف والقصور. واستخدم الشعراء الطرق المتعددة للتعبير عن شكواهم طلبا ورجاء من الله تعالى واستغاثة به وتذكيرا وبكاء، مباشرة وغيرمباشرة، فردية وجماعية، حسب متطلبات الناس والظروف.

الشكوى إلى الله في النصف الأول من القرن العشرين:

إنّ الله سبحانه وتعالى ابتلى عباده بالخير والشر والسلام والخوف والمنح والخطوب والمحن والقرب والبعد في هذه الدنيا، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٢١) وذكر سبحانه وتعالى في موضع آخر: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(٢٢)، وأرسل ابتلاءاته على النفوس البشرية في صورة الأمراض والفقر والكوارث الطبيعية كالزلازل والرياح والعواصف والفيضانات والحريق نذرا وتخويفا. لأن الله عزّوجل أودع فيها الحكمة البالغة كي تتحرّك القدرات الكامنة وتستفيد من التجارب والمعارك وتقوي قلوب الناس وعقولهم وعزائمهم، ولا تغلب عليهم الغفلة والضلالة.

ولكن الشعراء اشتكوا إلى الله لطلب المعونة أو بسبب ضعف إيمانهم أو عدم إيمانهم أو ضعف قوة التحمل والصبر لديهم. بينما شكا الأنبياء أيضاً، وكان إيمانهم قوياً. وإنما الشكوى عندهم تبحث لطبيعتهم البشرية لأن لكل بني آدم قدرة، مهما بلغت من القوّة ستقف عند حدٍّ، يبوح عن ألمه لخالقه. وهذا ما حدث مع الأنبياء وغيرهم من الشعراء والناس عامة. ولهذا يمكن أن نقسّم الشكوى إلى أربعة أقسام: الشكوى الجائزة: هي تكون ممزوجة بالدعاء، هؤلاء هم المؤمنون رجاء وطلبا للاستعطاف والاسترحام. الشكوى الممنوعة: وهي تكون مجردة من الدعاء، هؤلاء هم القانطون من رحمة الله احتجاجا أو يائسين لأنها تخالف الشريعة الإسلامية. الشكوى الصريحة والمباشرة: وهي تكون خالصة لله وموجّهة إليه. وتتضح فكرة

٢١- سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

٢٢- سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

وأسلوبا، وعبر الشعراء عنها رجاء وطلبا وبكاء وأنينا للاستعطاف والاسترحام. الشكوى غير المباشرة: وهي تكون من قضاء الله وقدره. وهذه الشكوى مذمومة وممنوعة لأنها تظهر التدخل في قضاء الله.

ولكنهم اعتدوا أحيانا عند التعبير عن شكواهم، وخالفوا الفكرة الإسلامية صراحة، واختاروا أسلوبا خاطئا بسبب الجهل والغفلة أو بسبب ضعف الإيمان، وهو أسلوب الاحتجاج واليأس الذي تمنع منه العقيدة الإسلامية، لأن هذا الأسلوب يؤدّي إلى التدخل الصريح في قضاء الله وقدره. والإسلام لا يسمح للمسلمين بهذا الأمر. لأن الله هو قادر مطلق، ويستطيع أن يفعل ما يشاء. وهذا الأسلوب أيضا ينافي الآداب والأخلاق الحميدة.

الشكوى سمة من سمات الشعراء، وهم أرق الناس إحساسا وشعورا، وكان النصف الأول من القرن العشرين مملوءا بالمصائب والمشاكل للاستعمار الغربي، لأن في هذه الفترة حدثت الحربان العالميتان: الأولى والثانية، وخلّفتا من الجوع والفقر والاستحصال والاستبداد والاستهانة والذلة في المجتمع والفساد الخلقي والخلقي والانتشار والتفرقة بين الأمراء والفقراء والجهلاء. وشعر الشعراء بهذه المشاكل والصعوبات، وأظهروها في شعرهم شاكين إلى الله تعالى استغاثة به واستعطافا.

الفرع الأوّل: الشكوى المباشرة إلى الله:

الشكوى إلى الخالق مباشرة هي شكوى محمودة، لأن الله تعالى هو الملجأ والمأوى والمعين، وسرّ القوة والعون في الضيقات، فإن يعقوب عليه السلام قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٢٣) للتعبير عن ذاته ليخرج الهموم والغموم لأن طبيعة النفس البشرية تدعوه إلى ذلك، ليروّح عن نفسه فيدل على أن شكواه إلى الله لا ينافي الصبر الجميل، فلنشكو إلى الله تعالى ولنقوي الصلة به عزوجل. ولا سيما في حال البلاء، فقد جاء الترغيب بها في القرآن الكريم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(٢٤) كما اشتكى نبي الله أيوب عليه السلام إلى الله لدائه فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(٢٥). فاستجاب الله له ورفع عنه الشكوى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾(٢٦).

ويعلي الشاعر جبران خليل جبران صدى الشكوى إلى الله تعالى لهمومه وغمومه ليجلي الله

٢٣- سورة يوسف، الآية: ٨٦.

٢٤- سورة الأنعام، الآية: ٦٤.

٢٥- سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.

٢٦- سورة الأنبياء، الآية: ٨٤.

همومه وأحزانه، رغم كثرة الأصدقاء الذين يقتاتون حوله ولكنّهم يغفلون عن الاهتمام بمصائبه.

أَبْقَى وَيَرْفَضُّ حَوْلِي عِقْدُ خُلاَّنِي أَشْكُو إِلَى اللهِ آلامِي وَأَحْزَانِي[٢٧]

والشاعر أبوالقاسم الشابي يخاطب الله سبحانه وتعالى شاكيا تواصل المصائب ويرجو منه زوالها، ويقول إن هموم الهجرة والاحتلال تكفي له وهو لا يتمكن من التحمّل أكثر من هذا:

ربّ إن الكروب تترى علينـــا حسبنا كـــرب هجرة واحتلال[٢٨]

يظهر من هذه الفكرة أنه ما كان راضيا بقضاء الله سبحانه وتعالى، لأن الله لا يكلف الناس بما لا يطيقون كما قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢٩]. ويشتكي الشاعر إلى الله بسبب همومه وأحزانه مستغيثاً به سبحانه وتعالى في أسلوب خبري:

هذه مهجة الشقـاء تناجيـك فهل أنت سامع يـا إلهي[٣٠]

بدأ البيت أيضا بالهاء ليؤدّي معنى الألم والوجع. مهجة: نسبتها إلى الشقاء، وهذه الكلمة ظرف مكان ليدل على إقامة الهموم به، كأن الهموم جعلته مسكنا وأشقاه. تناجيك: استخدم الشاعر "تناجي" بدلا من "تنادي" للهمس بالمنجي أسراره وخفاياه. وهذه الكلمة تحمل معنى إظهار التوتر الداخلي والاستغاثة بالذات الذي يقدر على التخلص منه وأسند إلى ضمير المخاطب استغاثة بالله. فـ: للتعقيب لطلب الجواب لهذا النداء. واستخدم أداة الاستفهام للغرض من الطلب والرجاء في الأحوال الشقية. واستخدم أسلوب النداء لغرض الالتفات إليه وإنزال البعيد منزلة القريب. إلهي: ونسب اسم الجلالة إلى نفسه ضمير المتكلم لغرض التقرب والتحبب والاسترحام.

يرفع الشاعرمعروف الرصافي الشكوى إلى ربّ السموات السبع والأرض في الخلق الذين جار بعضهم على البعض:

شكوت إلى ربّ السموات أرضه وما الأرض إلا من سمواته السبع
فقد جار في الأرض البسيطة خلقه على خلقه جورا إلى الحزن يستدعي

٢٧- **ديوان خليل جبران**، ج ١، ص ٢٣٤٣. (نسخة إليكترونية مأخوذة من المكتبة الشاملة)، وكذلك راجع إلى: **دواوين الشعر العربي على مر العصور**، ج ٤٥، ص ٣١٣.

٢٨- **ديوان أبي القاسم الشابي**، دارالعودة، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٤٧٨، ٤٧٩.

٢٩- سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

٣٠- المصدر نفسه، ص ٢٤١.

وإني لأشكو عادة في بــلادنا رما الدهر منها هضبة المجد بالصدع[٣١]

ولجأ الشاعر إلى الله في حالة الكرب النفسي والاجتماعي والسياسي لكشف البلاء عنهم:

فيا ربِّ نفِّس من كروب عظيمة ويا ربِّ خفف من عذاب مشدَّد[٣٢]

ويشتكي الشاعر إلى الله من نفاق معاملة المسئولين:

إلى الله نشكو الأمر من مدنيّة تعارض في أوصافها الكذب والصدق[٣٣]

ويرفع الشاعر الشكوى إلى الله بسبب القلب الذي لا يطاوعه في عدم الاهتمام بأمر الأوطان:

أشكو إلى الله قلبا لا يطاوعني ألا أكون على الأوطان غيرانا[٣٤]

يشكوالشاعرخليل مطران إلى الله سقمه الذي أبعده وأشقاه وأسعد حساده:

أشكو إلــى الله سقمي في بعدكــم وسهادي

هذا شقائي فيكـــــم يا غبطـــة الحساد[٣٥]

يخاطب الشاعر إبراهيم ناجي الله سبحانه وتعالى شاكيا من أحوال البلاد السيئة التي قد ملئت بالظلم والجور والعدوان، وأصبحت مؤلمة ومزعجة لقضاء الحياة، لا راحة فيها. وبالخصوص أرض مصر التي تنشأ فيها المشاكل والمصائب:

يا رب ما أعجب هذي البلاد لا ليـلَ فيهـا! كل ليـلٍ صبـاح

وكل وجه في حماها ضِماد ومصر لا تنبت إلا الجـــراح[٣٦]

ويعرض الشاعر إيليا أبو ماضي على لسان الفقير الشكوى إلى الله أنه وضع التاج على رأس الغني بينما وضع الأشواك على رأسه، واستخدم أسلوبا خبريا وحواريا:

٣١- **ديوان الرصافي** (مجموعة كاملة)، منشورات دارمكتبة الحياة، شارع سوريا، بيروت، ومحمود حلمي، شارع المتنبي، بغداد، ج ٢، ص ٣٤٤. وكذلك انظر: إيليا الحاوي، **معروف الرصافي الثائر والشاعر**، دارالكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م، ج ٢، ص ١٦٠.

٣٢- المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٦.

٣٣- المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠١.

٣٤- المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

٣٥- سمير سرحان ومحمد عناني، **المختار من شعر خليل مطران**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩م، ص ٣٠. وكذلك انظر: إيليا الحاوي، **خليل مطران شاعر القطرين**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م، ج ١، ص ١٥٢.

٣٦- **ديوان إبراهيم ناجي**، دار العودة، بيروت، كورنيش المزرعة، ١٩٨٠م، ص ١٥٧.

قال الفقير: يصرخ يا ربّاهُ حتى متى تُحكّمُ المـــوســـرَ في نفسي؟
وتضـــــعُ التـــاجَ علـــى رأسه و تضعُ الشوك على رأسي؟(٣٧)

قال الفقير: استخدم الشاعر فعلا ماضيا ليثبت قوله، وأتى بكلمة "الفقير" ليكون التأثير قويا في ذهن المتلقي. يصرخ: واستخدم فعلا مضارعا ليدلّ على استمرار طلبه من الله وإصراره. يا ربّاهُ: أسلوب النداء للتقرب والتحبب والاسترحام والاستعطاف. حتى: للدلالة على مدى انتهاء أيام الصعوبة. متى تُحكّمُ الموسرَ في نفسي؟: واستخدم في العجز أسلوبا إنشائيا للتقرير والاسترحام.تحكّم: وأتى بالفعل المضارع للتجديد والتغيير، ولإفادة تغيير حالته من العسر يسرا. الموسرَ: واستخدم اسم المفعول المعرّف بأل ليركّز على حالته المحبوسة. و: للمشاركة في الحكم السابق. تضعُ التاج على رأسه: كناية عن الغناء والعزة. تضع: أتى بالفعل المضارع للدلالة على الدوام والاستمرار لرحمة الله على الغني واستمرار الشقاء للفقير. التاج: القلنسوة التي يضعها الملك على رأسه لإظهارشأنه ومنزلته بين الناس من أجل رئاسته لهم، ويستخدم رمزا للعزة والمجد. على: للدلالة على ظرفية مكانية. رأسه: أهم العضو للجسد كله كأنه رئيس الجسد ما يواجه العزة والذلة أمام الناس. ونسبه إلى ضمير الغائب ما يرجع إلى الغني ومَنْ له شأن عظيم بين الناس. و: للتركيزعلى التفات المخاطب إلى المتكلم والاستبيان في الحكم السابق. تضعُ الشوك على رأسي: كناية عن الفقر والعناء، ويدل على استمرار بؤس الفقير وذلّته.

في هذا النموذج المذكور يحتج الشاعر إيليا أبو ماضي بالله ويتدخل في قضائه وقدره. يمكن وصل الأمر إلى هذا الحد بسبب تعرّض المصائب الكثيرة بعد الهجرة إلى أمريكا وبسبب سوء الظن بالله والقلق والفراق من أهله ووطنه وبسبب عدم تربيته الإسلامية لأنه كان والده مسيحيّا. وثانيا أنه قضى معظم حياته في بيئة غير إسلامية. ولكن مع هذا لا يجوز لأحد أن يتدخل في قضاء الله، ويحتج بقدره، لأنه يرتكب المعصية أو الكفر. كما قال الله عزّوجل: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾(٣٨) أو ييئس من رحمة الله الله سبحانه وتعالى، كما جاء في القرآن الحكيم: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾(٣٩).

٣٧- **ديوان إيليا أبي ماضي**، ج ٣، ص ٨٣٤.

٣٨- سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

٣٩- سورة يوسف، الآية: ٨٧.

الفرع الثاني: الشكوى إلى الله غير مباشرة:

الشكوى من القدر والموت والحظ والجوع والفقر والمرض والدهر ونوائبه لا تعدّ شكوى إلى الله ولكنها كلها قضاء الله ونظامه ولهذا تعتبر الشكوى إلى الله. وهذه الشكوى مذمومة لأنها تدل على عدم الاعتماد والرضاء على قدر الله وقضائه.

- **القضاء والقدر:**

القضاء: هو ما حكم به الله سبحانه من أمور خلقه وأوجده في الواقع. وقد يكون القضاء بمعنى الخلق أي خلق الأشياء قال تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾(٤٠) وكما جاء في موضع آخربمعنى خلق السماوات والأرض: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾(٤١).

فالقدر: هو ما قدّره الله سبحانه من أمور خلقه في علمه، أي جعل كل شيء بمقدار ما يناسبه بلا تفاوت، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾(٤٢) يقول ابن حجر العسقلاني(٤٣) رحمه الله تعالى: "قال العلماء القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله". وبهذا فالقدر تدبير والقضاء حكم. والقدر تصميم والقضاء تنفيذ والكل صادر عن الله سبحانه وتعالى ومعلوم له سبحانه وتعالى، والإيمان به واجب قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾(٤٤). وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾(٤٥). وإن الله تعالى هو قادر ومتصرف ومدبر لجميع

٤٠- سورة طه، الآية: ٧٢.

٤١- سورة فصلت، الآية: ١٢.

٤٢- سورة الحجر، الآية: ٢١.

٤٣- أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر، من أئمة العلم والتاريخ. أصله من عسقلان (بفلسطين) ولد سنة ١٣٧٢م بالقاهرة. ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث. وولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل، وتوفي سنة ١٤٤٨م بالقاهرة. أما تصانيفه فكثيرة جليلة، منها: **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، أربعة مجلدات، و**لسان الميزان**، ستة أجزاء مترجمة، و**الإحكام لبيان ما في القرآن من الأحكام**. انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج ١، ص ١٧٨.

٤٤- سورة الفرقان، الآية: ٢.

٤٥- سورة القمر، الآية: ٤٩. وراجع للنص: عمر سليمان الأشقر، **القضاء والقدر**، دار النفائس، عمان، الأردن، ط ٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج ١، ص ٩. وكذلك انظر: بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، **الكشكول**، ضبطه وصححه: محمد عبد الكريم النمري، دا رالكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ج ٢، ص ٦.

أمور الكائنات والبشر "وهو القادرالذي لا حد لقدرته. المهيمن على كل خلقه في السماوات والأرض. لا يقع في الوجود شيء إلا ما يريده أن يقع، ولا يكون شيء ما أراده أن يكون"(٤٦). "وإن الإنسان لا يستطيع أن يعمل خلف إرادة الله حسب مشيئته أو يتحدى قدر الله، وهذا يدل على ضعف علاقة الإنسان بالله وجفاف قلبه. إن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء وهو يفعل ما يشاء"(٤٧).

وكل ما يصيب العبد من خطوب وما يتعلق بالرزق والأجل فهذه من قضاء الله وقدره. ولكن الشعراء عبّروا عنها، واشتكوا إليها للتنفيس والترويح والاستنجاد والاستعطاف وتحقيق معونة الله وتسديده. يشكو إبراهيم طوقان من القضاء لتدمير البلد الآمن بالزلزال وجعله طللا دارسا من الأطلال:

بلـد كان آمنـا مطمئنـا فرمـاه القضـاء بالـزلزال
هـزّة، إثر هـزّة تركتـه طـللا دارسـا مـن الأطلال
مادت الأرض ثم شبّت وألقت ما على ظهرها من الأثقـال(٤٨)
وقهقه القدر الجبـار سخـرية بالكائنات، تضاحك أيّها القدر!
تمشي إلى العدم المحتوم، باكيـة طوائف الخلق والأشكال والصور
وأنت فوق الأسى والموت، مبتسم ترنو إلى الكون، يُبْنَى، ثم يندَثِرُ(٤٩)

ينبغي للإنسان المؤمن أن يصبر في مرض أو مصيبة ويرضى بقضاء الله وقدره ويقبل عطاءه ويطيع أوامره، ولا يتحدى القدر.

إن الشاعر إبراهيم ناجي يشكو من القضاء والقدر والحظ لسبب الحرمان الذى يعيش فيه ويتألّم من حظه السيّئ من أجل أحواله السيّئة:

قدر أراد شقـاءنا لا أنت شئـت و لا أنا
عـز التلاقي و الحظوظ السود حالت بيننـا
قد كدت أكفر بالهوى لو لم أكن بك مؤمنـا(٥٠)

٤٦- المرجع نفسه، ص ١٧، ١٩.

٤٧- المرجع نفسه، ص ٢٠.

٤٨- **ديوان إبراهيم طوقان**، مع دراسة متخصصة لزكي المحاسني، ص ٤٥٠.

٤٩- **ديوان أبي القاسم الشابي**، ص ٤٧٨، ٤٧٩.

٥٠- **ليالي القاهرة شعر إبراهيم الناجي**، دارالعودة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م، ص ٢٤١.

و يشكو من القضا لسخره معه، و ما أشقاه من بؤس و مصائب كبرى:

وكأنَّ القضاءَ يسخر مني حين أبكي وما عرفتُ البكاءَ
ويح دَمعي وويح ذلة نفسي لَم تدع لي أحداثهُ كبرياءَ![٥١]

يقول الشاعرعبد الرحمن شكري شاكيا من الأقدار التي تحدق وتشدّد، وتغرّ الناس ضيقا ولينا. والناس في أقدامها كالكرة تفعل بهم ما تشاء، ولم يأمنوا و يسلموا في عيشهم.

هـذه الأقدار محدقة غرّ منهـا الضيق واللين
نحن في أقـدامها كرة ما لنا في العيش تأمين[٥٢]

ويقول أيضا موضّحا وشاكيا أن صروف القضاء تسبب قتل روح الذكاء تبعث القنوط والكآبة والريب.

وفي صروف القضاء عرقلة تقتل روح الـذكاء بالــريب
وتبعث اليأس والمـلالـة والـ شكّ وتؤدي بهمة الطلب![٥٣]

سبّ الشعراء الحظوظ والأقدار عند مواجهة المصائب ولعنوها ولاموها. ولكنهم في الحقيقة خالفوا الفكرة الإسلامية. بينما أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يصرّف الأمور بالقضاء والقدر، وهو يقدر على أن يفعل ما يشاء، كما جاء في القرآن الحكيم: ﴿مَآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[٥٤]. ويكفّر الله من ذنوب المسلمين بإصابة النوائب، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: "والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن هَمّ ولا حزن ولا نصب، حتى الشوكة يشاكها إلا كَفَّر الله عنه بها من خطاياه"[٥٥].

- **الموت:**

إن الشعراء يعرفون قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾[٥٦] ويصدقون بأنه قدر الله لا مفر منه، كما قال الله عزوجل: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[٥٧]. وكأن الحياة

٥١- إبراهيم ناجي، **الأعمال الشعرية المختارة**، تحقيق ودراسة: حسن توفيق، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الطبعة العربية الأولى، ٢٠٠٣م، ص ١٨٢.

٥٢- **ديوان عبد الرحمن شكري**، جمعه وحققه وقدم له: نقولا يوسف، طبع على نفقة عبد العزيز مخيون، توزيع المعارف بالإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م، ص ٢٦٤.

٥٣- المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

٥٤- سورة الشورى، الآية: ٣٠.

٥٥- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، **مسند أحمد بن حنبل**، المحقق: السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨ م، ج ٢، ص ٣٣٥.

٥٦- سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

٥٧- سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

الدنيا ممرّ ليرحل الإنسان إلى الحياة الآخرة، ويجزى الحسنات بالخير، والسيئات بالشر. ومع هذه الحقيقة يشقّ الموت على قلوب البشر، ولاسيّما موت ذوي القربى والأصدقاء حدث مؤلم هزّ قلوب الشعراء، فاشتكوا من شدّة الألم والحزن لفراق الأعزاء وخاصة في القرن العشرين لما يحيط بالظروف العامة القاسية التي هدمت إقامة الإنسان بأسباب الموت العديدة نحوالحروب والجوع والبؤس وما يثير القلق والخوف من المصير.

كما يقول الشاعرجبران خليل جبران شاكيا من كثرة أموات الأصدقاء التي فجّعته وهزّته،حتى شكت عينه من فرط البكاء.

إلى أي امتداد في البقـاء تروعني منـايا أصـدقـائي
شكت عيني وما ضنت قديما نضوب[٥٨] الدمع من فرط البكاء[٥٩]

ويعرض الشاعرأيضاً الشكوى من كثرة أموات أصدقائه التي لوّعته وآلمته. كأنه أينما يولّي وجهه فثمة وجه الموت.

يـذهب ميت وراء ميت أنثني أذرف الدمـوعـا
هذا حبيب قضى ويتـلو آخر فـي إثره سريعـا[٦٠]

ويشكو أبو القاسم الشابي من الموت المؤلم لوالده الذي مزّق صدره وفجّعه في الكون كما أنه يتفجّع بمرض ألمّ به بعد وفاة أبيه، ومما تعرّض بسببه للوهن الشديد في صحته:

يا موتُ! قد مزَّقتَ صدري وقصمْتَ[٦١] بالأرزاءِ ظَهْري
وفجعتنـي فيـمَن أحبُّ ومنْ إليـه أبُثُّ سـرّي[٦٢]

هذه الأبيات صيحة من صيحات نفسه المملوءة بالأحزان والذكريات، ونفثة من نفثات هذا القلب المحطم في أيام الأسى التي تابعت نكبته بوفاة والده.

يقول الشاعرعبد الرحمن شكري أيضاً شاكيا ومتفجّعا لكثرة الأموات التي كانت أشدّ وآلم من الفشل والهزيمة:

وكـم مـوت ألذّ من الأماني وكم موت أشدّ من الهزيمة[٦٣]

٥٨- نَضَبَ الشيءُ سالَ ونَضَبَ الماءُ، انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١، ص ٧٦٢.

٥٩- **ديوان خليل جبران**، ج ١،ص ١٣٧.

٦٠- **ديوان خليل مطران**، دار العودة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ج ١، ص ٤٩.

٦١- قصم أي: كسر. انظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، **العين**، ج ٧، ص ٣٣٢.

٦٢- **ديوان أبي القاسم الشابي**، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

٦٣- **ديوان عبد الرحمن شكري**، ص ٩٠.

- **الحياة:**

إن الحياة الدنيا دار الابتلاء والامتحان للإنسان بسبب البلاء والمحن التي تقع عليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾(٦٤) ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾(٦٥) ويواجه بعض الناس هذه البلايا بسعة القلب، ومنهم من لا يتحمّلها. إن البلايا التي يتعرض لها الإنسان هي امتحان من الله سبحانه وتعالى لمعرفة مدى صبر الإنسان، ولا يوكل أحد فوق مقدوره، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٦٦) أو يبتلي الله عبده بالمصائب محبة له،كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾(٦٧)، وقد يمتحن الله الإنسان بالأمراض أو بالفقر أو بالهوان وإدبار الدنيا وغيرها من الأمور،كما قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٦٨). وإن المصائب قد تكفّرالذنوب، و ترفع الدرجات عند الصبر. وابتلى الله رسله في الدنيا، ونذكر قوله: "ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها"(٦٩). يجب علينا أن ندعو ربنا أن يحمينا من الرزايا والمصائب و نلجأ إلى الله دائما بطلب الستر والعافية فى الدنيا والآخرة.

ولكن الشعراء لم يتحمّلوا بإحساسهم المرهف، واشتكوا من الحياة مرّ الشكوى لما فيها من المصائب والمشاكل إبداء الحزن والألم الداخلي الشديد، كأنّها طوفان الحزن واليأس والألم. ويقدم الشاعر

٦٤- سورة الرعد، الآية: ٢٦.

٦٥- سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

٦٦- سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

٦٧- سورة التوبة، الآية: ٥١.

٦٨- سورة الحديد، الآية: ٢٢.

٦٩- ابن الأثير، **جامع الأصول**، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، الجزء ٩، ص ٥٨١. انظر: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ج ١٤، ص ٢٦٧. والإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، **السنن الكبرى**، المحقق: عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعةالأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ج ٤، ص ٣٥٢. وأبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى ٣٢١هـ)، **شرح مشكل الآثار**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ج ٥، ص ٤٥٨.

جبران خليل جبران الشكوى من ثقل الحياة على بحر المجتث:

يا صاحبي غدوت منذ نأيتما أجد الحياة ثقيلة الإعياء[٧٠]

مستفع لن متفع لن فعلات مستعلن متفعل فاعلاتن

فكلمة "ثقيلة" توحي بالتعب والاكتئاب والملل من الحياة لسبب الفراق من حبيبه. والحروف الحلقية تزيد ثقل الحياة على نفسية الشاعر.

ويشتكي الشاعر أبو القاسم الشابي من نوائب الحياة وظلم الناس لقلوبهم الصلبة بسبب انعدام القيم والمشاعر الطيبة:

آه ما أهول إعصار الحيـــاة آه ما أشقى قلوب النـــاس آه[٧١]

في هذا البيت يئن الشاعر عند الألم والتبرم ليريح عن الضغوط النفسية. وأظهر الشعراء الشكوى باكين وآنين عند التألّم والتمزّق في حالة العجز ونقض الأمل. ويقول الشاعر شاكيا ومتألّما من الحياة المكتئبة التي ملئت بالآلام والأحزان، وكأنه اعترض على قضاء الله و قدره مرات عديدة و هو يقول:

إن الحيـــاة كئيـــبة مغمـــورة بدمـــوعهـــا[٧٢]

ويقول متذمّرا من الحياة بأنها قفر ومراعٍ وهي لا تنبت إلا الشوك والتراب.وينغمس الناس في لذّاته،ولايتميّزون الهول والمصاب:

يا صاح ! إن الحيـــاة قفـــر مـــروع، مـــاؤه ســـــراب

لا يجتني الطـــرف منـه إلا عـــواطف الشوك والـتراب

وأسعـــد الناس فـــيه أعمـــى لا يبصـــر الهول والمصـــاب[٧٣]

وكذلك يشكو من الحياة للمعاملة السيئة الغريبة والمؤلمة معه:

مـــالي تعـــذّبني الحيـــــاة كأننـــي خـــلق غـــريب؟

وتهـدّ مـــن قلبـي الجمـيل؟ فهـل لقلبـــي من ذنـــوب؟[٧٤]

٧٠- **ديوان خليل جبران**، ج ١، ص ١١٦.

٧١- **ديوان أبي القاسم الشابي**، ص ١١٥.

٧٢- المصدر نفسه، ص ١١٥.

٧٣- **ديوان أبي القاسم الشابي**، ص ٢٠٠، ٢٠١.

٧٤- المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

وترتفع حدة الشكوى ويتوجّع من مصائب الحياة وآلامها، وجعلها أخطر وأعظم المصائب التي أشقت أفئدة الناس.

آه! ما أهول إعصار الحيــاة!　　آه! ما أشقى قلوب الناس آه![٧٥]

ويعتبر الشاعر أبو القاسم الشابي شاعر الاكتئاب والتشاؤم، لأن معظم شعره يعكس كرهه للحياة ويتحدّث عن مآسيها أنها مظلمة مزيفة، يجد الإنسان فيها الشقاء والألم. ولعل المرض الذي لحقه كان سبباً في هذه الظاهرة لشعره. ويعرض الشاعر معروف الرصافي الشكوى من الحياة أنها جروح قتلتنا والموت يضمد هذه الجروح.

إنما هذه الحياة جروح　　أثخنتنا والموت مثل الضماد[٧٦]

ويقدم الشاعر إبراهيم ناجي الشكوى من قسوة الحياة على بحر الكامل مع الوصل:

قست الحياة على الطريـ　　د فلا الدموع ولا الصَّلاةْ[٧٧]

متفاعلن　متفاعلن　متفاعلن　متفاعلن

وكرّر الشاعر الكلمات في البيتين ككلمة "قست" في صدر البيتين وحرف الجر "على" وتكرار عجز في البيتين تدلّ على إعادة معاناة الشاعر ومعاقبته. وذكر الحروف الشديدة متكرّرة ما تدل على أن شدّة هذه المصائب وإعادتها جعلت حياته قاسية وضيّقة. فالموسيقى الخارجية والداخلية توحي أيضاً بقسوة حياة الشاعر ما جعله يائسا ومتألما ومتضايقا من الحياة، ولتجذب المتلقي للتجاوب مع آلام الشاعر.

ويشكو الشاعر عبد الرحمن شكري من ظلم الحياة التي أحاطت به من جميع الجوانب وقيّدته وفجّعته كأنّها قوّة جبّارة تدوس بنيها. ولكن في الحقيقة كل من يعدّ القدر أو الحياة قوة جبّارة فهو يردّد الآية الكريمة: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾[٧٨].

كلّما طافت الحيــاة حـــــوا　　لـيّ هوت من جفونها العبرات

ما كرهت الحيـاة إلا لأن الناس　　فـي راحـة الردي حصـــوات

وهي جبـــارة تدوس بنيهـــا　　وتغنّي وهـم لديهـــــا رفـات

٧٥- المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

٧٦- **ديوان الرصافي**، ج ١، ص ١٨.

٧٧- إبراهيم ناجي، **الطائر الجريح**، ص ١٣٢.

٧٨- سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

غيرأني رأيتهـــــا وهي تـــبكـي فأفـاقت بمهجتـي الزفـــــرات
آلمتني شجونهـــــا فتعـــذبت وطــارت بغبطــتي الهفـوات(٧٩)
حيـاة كدمع العين أمّا مذاقهـا فمـر، وأمّـــا وقعهـا فوجيـع(٨٠)

ويقول الشاعر شاكيا ومتألّما من مصائب العيش التي ينالها الإنسان، وكأن العيش ذئب ضارّ ما يضرّ الإنسان ويقتله بأنيابه وأظافره:

وما العيش إلا الذئب تدمي نيوبه وللـعيش ناب قـاتل وأظافـر(٨١)

ويعبر الشاعر إيليا أبو ماضي عن الحياة شاكيا أنها خدعة وقد أذهل الأسى والحزن والألم روعة وجهها وبهجتها وابتسامتها، وقيل صدقا بأن الحياة غرور، و الناس يموتون سرعة، وتنتهي جميع الآمال والأماني، وكذا يكون مصيرالإنسان أنه يلحس التراب ذَلا وحقارة:

قالت وقد سلخ ابتسامتهـا الأسى صــدق الذي قال الحيــاة غــرور
أكذا نمـوت و تنقضي أحـلامنـــا في لحظة، و إلــى التراب نصير؟(٨٢)

ويشتكي الشاعر محمد مهدي الجواهري من الحياة بسبب مواجهة كثرة المشاكل على بحر الطويل مع الوصل والردف:

أروني انبلاجا(٨٣) في حياتي فإنني سئمتُ حيــاةً جُلِّلتْ بســواد(٨٤)
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعول مفاعيلن فعول مفاعل

فالكلمات تتناسب لأداء معنى الهموم النفسية لخيبة آماله من أجل سلوك أساتذته السيئ، حتى اكتئب من الحياة. والكلمة "سئمت" تزيد معنى الاكتئاب والحزن. والحروف الحلقية كالحاء والهمزة والعين، والحروف المشدّدة كالشين والنون واللام توحي بأن الحياة ثقلت عليه.

- **الفقر والجوع:**

إن الناس يظلون مهمومين في طلب الرزق، ويتعبون في سعي حصوله، ويغرب بعضهم عن أهلهم ووطنهم، ولكن الرزق أمر مقدر قبل ولادة الإنسان. إن الله سبحانه وحده هو الرزاق ذو القوة

٧٩- هَفْوةً: زَلَّ وهَفَا أَيْضاً: إذا جاعَ، انظر: الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج ٤٠، ص ٣٠٦.
٨٠- **ديوان عبدالرحمن شكري**، ص ٤١٥.
٨١- المصدر نفسه، ص ٢١٣.
٨٢- **ديوان إيليا أبي ماضي**، ج ٢، ص ٣٦٥.
٨٣- يقال: انبلج الصبح إذا أضاء. انظر: الخليل، **العين**، ج ٦،ص ١٣٣.
٨٤- **ديوان محمد مهدي الجواهري**، ص ٩٠.

المتين، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾(٨٥). وقدّر الله سبحانه وتعالى كل خير وكل رزق للعبد، ولا يمكن أن يخطئه أو يصيب غيره، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(٨٦). لقد دبّر الله نظام خلقه وعباده تكفّلا، وقدّر لهم بأحسن تقدير. فيواجه الناس معاناة الفقر والجوع منذ بدء الخليقة، ويردّ بعض الناس إلى سوء استخدام الموارد الطبيعية التي جعلها الله مسخرة للإنسان، ويلوم بعضهم الآخرين الملحدين للقضاء والقدر. وساد الفقر والجوع في العالم كله ولاسيما في بداية القرن العشرين نتيجة الحربين العالميتين وما خلّفتا من الدمار والهلاك، وأخذ شعر الشكوى حظا كبيرا من قصائد الشعراء في هذا العصر، ويشكو الشاعر جبران خليل جبران من اعتداء القوات الظالمة عليه، وطغيان البؤس والنكد على العالمين:

غدا يـؤدي حســـاب لا رواغ به　　مـن شر ما يقتني للظالمين غدا
قصاص حق لجــان من مطامعـه　　طغى علـى العالمين البؤس والنكد
مشى ليفتتـح الدنيـا بـه حـــرد　　بلا اكتراث لمغصوب به حـرد(٨٧)

ويشكو الشاعر إلى الله على لسان الأرملة فقرا وجوعا على بحر الطويل:

أَيا رَبِّ إِنـــي حـامِلٌ ثُـمَّ مُـرْضِعُ　　ومالِي مِن القُوْتِ الضَّرُورِيِّ مشْبِعُ
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن　　فعولن مفاعيلن فعولن مفاعل
ومالِي مِن القُوْتِ الضَّرُورِيِّ تُقَرِّعُ　　وأَشْعُـرُ أَنَّ ابْنِي بِجوفِي مُوجـعُ
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعل　　فعول مفاعيلن فعولن مفاعل
فَهلْ هُوَ جانٍ أَم يُعذَّبُ منْ أَجلِي　　فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن(٨٨)

وكرّر الشاعر الحروف المشدّدة ما تشير إلى شدّة الكوارث وثقلها على الحياة. وذكر "العين" سبع مرات في المقطع، وهي أصعب الأصوات في النطق مما يظهر أن هذه المصائب تكسر أعظامها. والحروف الحلقية والأصوات الجهرية تشير إلى صعوبة حياة الأرملة. وتكرار "الراء" تدل على أن المصائب تعيد عليها وتؤلمها وتضيف شدائدها وبؤسها. كما إنها حامل ومرضع وموجع وفقيرة عابسة وبائسة،

٨٥- سورة الروم، الآية: ٤٠.

٨٦- سورة هود، الآية: ٦.

٨٧- **ديوان جبران خليل جبران**، ج ١، ص ٧٧٣. "تحية يا حماة البلج يا أسد".

٨٨- المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦١٢. وانظر: **دواوين الشعر العربي على مر العصور**، موقع أدب، ج ٤٥، ص ١٠٤.

وليس لديها شيء ما تطعمه ابنها الباكي أو تأكل نفسها لقوت الجنين ولتحي نفسها. والغنّات تشير إلى الأنين الداخلي الشديد. ترددت أحرف الميم والباء، فإن هذه الحروف تبعث وقعا متناسقا مطردا. ويعكس الشاعر حافظ إبراهيم أبرز صورة من البؤس المدهش الذي أفنى نفوسا طيبة:

كم طوى البؤس نفوسا لو رعت　　منبتا خصبا لكانت جوهرا
كم قضى العدم على موهبة　　فتوارت تحت أطباق الثرى(٨٩)

ويقول الشاعرأيضا شاكيا من البؤس الشائع الذي ضرّ اليتامى خاصة:

شاع بؤس الأطفال والبؤس داء　　لو أُتيحَ الطبيبُ غيرُ عضال
أيّدوا كلّ مجمع قام للبـ　　ـرّ بجاه يظله أو بمال
كم يتيم كادت به البأ　　ساء لولا رعاية الأطفال(٩٠)

ويذكرالشاعر معروف الرصافي الأسباب التي تؤدّي بالمرأة إلى الشكوى والبكاء، وهي تبكي وتشكو من الفقر والجوع لوفاة زوجها الحامي والمسعد إفجاعا وأوجاعا ولمواجهة الهموم، ومن الدهر لإشقائه بالفقر والذلة فتشكو المرأة إلى الله لعديم المؤنس وقلة حيلتها وفقدان وسائلها لتربية طفلتها وهي تبكي طول الليل ساهرة مع بكاء طفلتها:

يَا رَبِّ مَا حِيلَتِي فِيهَا وَقَدْ ذَبُلَتْ　　كَزَهْرَةِ الرَّوْضِ فَقْدُ الغَيْثِ أَظْمَاهَا
مَا بَالُهَا وَهْيَ طُولَ اللَّيْلِ بَاكِيَةٌ　　وَالأُمُّ سَاهِرَةٌ تَبْكِي لِمَبْكَاهَا
وَيْحَ ابْنَتِي إِنَّ رَيْبَ الدَّهْرِ رَوَّعَها　　بِالفَقْرِ وَاليُتْمِ، آهاً مِنْهُمَا آهَا
كَانَتْ مُصِيبَتُهَا بِالفَقْرِ وَاحِدَةً　　وَمَوْتُ وَالِدِهَا بِاليُتْمِ ثَنَّاهَا(٩١)

في هذه الأبيات تبكي المرأة الأرملة في الأزمات نتيجة رقتها الفطرية محافظة من وطأة الحزن الشديد، وتنفيسا عنه في حالات الحزن العظيم والضغط النفسي. والبكاء تعدّ حمية أساسية ومهمة من حصول الصدمات النفسية. وهي وسيلة رابطة روحية بالرب في الدعاء والتوسل به. وهي توفّر الإنسان الإحساس بالصفاء الروحي والرضا، كما بكى النبيّ يعقوب عليه السلام على فقد ولده يوسف عليه

٨٩- **ديوان حافظ إبراهيم**، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م، ص ٣١٠.

٩٠- المصدر نفسه، ص ٣١١.

٩١- **ديوان الرصافي**، ج ١، ص ٢٠٧.

السلام: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾(٩٢) فشكا الشعراء بكاء حينما عجزوا وفقدوا الأمل.

ويقدّم الشاعر الشكوى على لسان المرأة التي تشكو إلى الله من الفقر والجوع:

مرت تقول ألا يا ربّ خذ روحي ... كي أستريح بموتي من تباريحي
مَهزولةَ الجسم من فقر ومن نكَد ... مصفَرّة الوجه من همّ وتتريح
باتت بغير عشاءٍ وهي طاوية ... وأصبح وهي غَرثَى دون تصبيح
تمشي انخزالاً بعبء الفقر مُثقَلَةً ... كظالع في الطريق الوَعْر مَكسوح
خارت قواها فمارت في تخزّلها ... يكاد سُقطها هبّ من الريح
تأوّهت آهة حمراء داميةً ... تشفّ عن كبِد بالهم مَجروح
وأجهشت ثم أرخت من محاجرها ... عِنان دمع على الخدَّين منضوح(٩٣)

ويقول الشاعر إبراهيم ناجي باكيا لأجل الفقير ليشارك المحزون في عبراته أن نيل الرغيف أقصى ما لديه من قدرات و مهارات:

وكيف لا أبكي لكدح الفقيرْ ... أقصى مناه أن ينال الرغيفْ(٩٤)

- **المرض:**

الإنسان في الحياة الدنيا لا يسير على وتيرة واحدة من الصحة والعافية، لما يصيبه من الأمراض والأسقام، وإن كان الناس يتفاوتون في مقاومة المرض ومدى تحمّله، أو التبرم منه. وتداول الأيام بين الناس بتداول أحوالهم من الشدة إلى الرخاء ومن الرخاء إلى الشدة، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن الهزيمة إلى النصر على الأفراد والقبائل والدول، قال تعالى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٩٥). والمرض قدر وابتلاء من الله، فعلى المؤمن أن يرضى بقدر الله عز وجل، لأن الله سبحانه وتعالى يمتحن المؤمن في الدنيا في نفسه وأهله أو ماله، كما قال تعالى: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾(٩٦). أما

٩٢- سورة يوسف، الآية: ٨٤.

٩٣- المصدر نفسه، ص ٢١٣.

٩٤- **ديوان إبراهيم ناجي**، ص ٢٣.

٩٥- سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

٩٦- سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

الشكوى من المرض فلا يقصد بها أن الإنسان يعترض على حكم الله، بل يفعل هذا من شدّة ما ألمّ به من همّ وحزن، ولعل ذلك يتضح في النصف الأول من القرن العشرين. ويقول الشاعرجبران خليل جبران شاكيا أنه لا يتمكن من البقاء بعد موت الصديق، ويكره الحياة، ويتألّم من عدم تأثير الدواء لضعف جسده لسبب الهموم و الأمراض:

لم تطيقي بعد الأليف[٩٧] البقـاء وكرهت الحيـاة أمست شقـــاء
فوهى قلبك الكسير المعنـى وتعجلت للـــرحيـــل القضـــاء
ما الـــــذي يفعل الـــدواء إذا لم يبق في الجسم ما يعيـن الدواء[٩٨]

ويستغيث أبوالقاسم الشابي بالله من المصائب ويشكوإليه آلامه في فؤاده الحزين الأليم:

يا إله الوجود، هـذي جراحٌ في فؤادي تشكو إليك الدواهي[٩٩]

ويشكو معروف الرصافي من المرض والفقر إلى الله لعدم الراحة في الحياة، لأن الوجع في مفاصله يؤرّقه طوال الليل، ولايستطيع أن يكسب المال لشدة الألم، وأصبحت حياته عذابا لشدة المرض والفقر، واكتأب من الحياة:

وجع في مفاصلي دقّ عظمي ودهاني ولم يـرقّ لعـــدمي
عاقني عن تكسبي قوت يومي ربِّ فارحم فقري بصحة جسمي
إن فقـــري أشد مـــن أوصـــــابي[١٠٠]

وفي هذه الأبيات يقدم الشاعر الشكوى في صورة حقيقية لمرضه الشديد في جسده وعدم قوته مما لايستطيع أن يستريح ليلا.

ويشتكي الشاعر حينا من المرض وحينا من الفقر باكيا:

إن سقمـاً بـــه وعُقمـــا ألمـــا تركاه يـذوب يومـاً فيومـــــا
فهو حيناً يشكو إلى السقم عدما وهو يشكو حيناً إلى العدم سقما
باكيـاً من كليهمـا بانتخـــاب[١٠١]

٩٧- الأليفُ: الحَنِينَ، انظر: الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج ٢٣، ص ٢٨.
٩٨- **ديوان خليل مطران**، ج ١، ص ١٠٥.
٩٩- **ديوان أبي القاسم الشابي**، ص ٢٤٠.
١٠٠- **ديوان الرصافي**، ج ١، ص ٩٥.
١٠١- المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٦.

ويعرض الشاعر الشكوى من شدة المرض وضعفه الشديد على بحر الخفيف:

ظلّ يشكو للأخت ضعفاً وعجزاً إذ تعـــزيه وهـــو لا يتعزى
فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن فاعـــلاتن متفعلن فعلاتن
أيّها الأخت عزَّ صبرَى عـــزّا إن للـــداء في المفاصل وخزا
فاعلاتن متفع لن فـــالاتن فاعلاتن متفع لن فعـلاتن
مثل طعن القنا ووخز الحراب فاعلاتن متفع لن فاعلات(١٠٢)

فالألفاظ تتناسب للتعبير عن الشقاوة والمرض المخزي المؤلم، والحروف الشديدة كالشين والزاي والدال، والحروف المفخمة مثل الظاء والضاد والصاد والطاء والقاف توحي بشدّة المرض الذي ينتابه. و"طعن القنا" تؤدّي غلبة المرض عليه وشدّة إيذائه. والبيت الأول كله يعبر عن عجزه وضعفه. وقافية المخمس تحمل صرخاته الطويلة لسبب شدة هذا المرض.

ويشكو الشاعر خليل مطران من المرض الذي ألمه وأشقاه:

دَاءٌ أَلَـمَّ فخِلْتُ فيـهِ شِفَائـــي من صَبْوَتي، فتَضَاعَفَتْ بُرَحَائي(١٠٣)

في هذا البيت استخدم الشاعر صورة الطباق في كلمتي "شفائي" و "برحائي" للدلالة على طبيعته المضطربة ونفسيته المتألّمة.

يشتكي الشاعر إيليا أبوماضي من المرض وكثرة المصائب وعجزه عن مواجهتها بسبب السقم:

كيف يقوى على الشدائد عان أكل السقم جسمه أو كادا(١٠٤)

استخدم الشاعر أسلوبا إنشائيا للاسترحام والاستنكار. كيف: أداة الاستفهام للدلالة على عجزه عن مقاومة الشدائد. يقوى: فعل مضارع يدل على الاستمرار والتجديد. على: حرف الجر يفيد المخالفة. الشدائد: جمع التكسير يدل على كثرة المصائب. أكل: فعل ماض يدل على تثبيت الفعل. السقم: المرض، فاعل مرفوع بالضمة للدلالة على ثبوت المرض في جسده ودوامه فيه. جسمه: مفعول به، ونسبه إلى ضمير الغائب للتأكيد. أو: للدلالة على الوقفة للتفكير والانتظار. كاد: فعل المقاربة أي قرب أن ينتهي الجسد كله بسبب المرض أي يموت.

١٠٢- المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٦.

١٠٣- **ديوان خليل مطران**، ج ١، ص ١٧.

١٠٤- **ديوان إيليا أبي ماضي**، ج ٢، ص ٢٩٣.

- **الدهر ونوائبه:**

ذكر في الحديث الشريف: "لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله"[١٠٥] وفي رواية "فإن الله هو الدهر"[١٠٦] وكان العرب يذمون الدهر ويسبونه عند النكبات والحوادث، ويكثرون ذكره في أشعارهم. وقال الله تعالى عنهم في كتابه العزيز: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[١٠٧] والدهر اسم للزمان الطويل، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذم الدهر وسبه "أي لا تسبوا فاعل هذه الأشياء، فإنكم إذا سببتموه وقع السب على الله تعالى لأنه الفعال لما يريد لا الدهر"[١٠٨]. وجاء في موضع آخر: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله عزوجل: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار"[١٠٩] ولكنّ الشعراء يبالغون في ذكره ويذمّونه ويجعلونه قوّة قادرة على تصريف أمور الحياة نعمة وشقاء، ويغفلون عمّا يأمر الإسلام. وكذا يرفع الشاعر أحمد شوقي الشكوى إلى الخليفة من ظلم الدهر:

وإلى السيد الخليفـــة نشـــكو جـور دهــر، أحـــراره ظلام[١١٠]

ويشتكي الشاعرحافظ إبراهيم إلى أحمد شوقي من الزمان أن صروف الدهر ونوائبه قد تقلّبت بهم وأشقتهم:

أشكو إليك من الزمان وزمـرة جـرحت فؤاد الشعر في أعيــانه
كم خارج عن أفقه حصب الورى بقريضـه والعجب ملء جنانه

١٠٥- سليمان بن عبد الله آل الشيخ، **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، دراسة وتحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ج ٢، ص ٣٠٧.

١٠٦- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، **مسند أحمد بن حنبل**، المحقق: السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج ٢، ص ٢٥٩. وأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج ٥، ص ٥٢٧.

١٠٧- سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

١٠٨- سيدي عبد القادر الجيلاني، **الفتح الرباني والفيض الرحماني**، دار الريان للتراث، شارع الأهرام، ج ١، ص ٦٣.

١٠٩- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ج ١٢، ص ٧٩.

١١٠- أحمد شوقي، **الأعمال الشعرية الكاملة**، دار العودة، بيروت، (بدون تاريخ)، ج ١، ص ٢٤٣.

يختـال بين الـناس متّئد الخطـا ريح الغـرور تهــبّ مـن أردائه
كم صكّ مسمعنا بجندل لفظـه وأطـال محنتنــا بطول لســانه
مازال يعلن بينــنا عن نفســه حتى استغــاث الصم من إعـلانه
نصح الهداة لهم فزاد غـرورهم واشتـدّ ذاك السيـل في طغيــانه
أو لم تر الفرقان وهـو مفصّـل لـم يلفت الـبوذي عن أوثانه(١١١)

ويشتكي الشاعر معروف الرصافي من الدهر لإشقائه، ويجسّم الدهر ليجعله إنسانا.

قوض الدهر بالخراب عمادي ورَمتْنــي يداه بالأنـــــكادِ(١١٢)

وشبه الشاعر صواعق الدهر بالإنسان القاسي، وحذف المشبه به، وأبقى شيئا من لوازمه "رمتني" على سبيل الاستعارة المكنية ليعطي المتلقي الشعور بالدمار والخراب ومدى قوة الدهر لإهانة البشر في صورة فنية. ولكنّه حقا يضل القارئ لسبب الفكرة الخاطئة لأن الله سبحانه وتعالى هو قادر مطلق، وهو من يهلك ويفني كل شيء، لا الزمان. ويشتكي الشاعر من شقاوة الأيام على بحر الطويل:

به ألقت الأيام أثقـال بؤسهـا فهاجت به الأحزان فاغرة الفم(١١٣)
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعول مفاعل

فالكلمات جمع التكسير تدل على كثرة الآلام والأحزان، والأصوات الممدودة توحي بتوسع المصائب. وصوت "الفاء" يدل على التهام الآلام، وصوت "الراء" يدل على إعادة المصائب وتتابعها، وصوت "التاء" المربوطة المضمومة يدل على الآلام النفسية، وكلمة "الفم" تدل على هزّة شديدة بسبب الأحزان. وهذا البحر يناسب لتوضيح موضوع الفقير الهام، فوردت الحروف والأصوات والكلمات في هذا المقطع منتظمة مما ينجم الإيقاع الداخلي ما تترجم الفكرة والمعاني الحقيقية.

وكذا يعبر الشاعر خليل مطران عن الدهر الذي فرّق بينه وبين حبيبته زينب بعد الوصال:

فَـرَّقَ الـدَّهْرُ بَيْنَنَـا بَعْدَ قُـرْبٍ فما كان لي من عــداء وحـرب(١١٤)

ويشكو الشاعر إبراهيم ناجي من الدهر عدم اعتنائه بالنظرة العادلة إلى الناس لإتاحة البعض

١١١- **ديوان حافظ إبراهيم**، ص ١٠٠.
١١٢- **ديوان الرصافي**، ج ٢، ص ٣٨٠.
١١٣- **ديوان الرصافي**، ج ١، ص ٤٠.
١١٤- **ديوان خليل مطران**، ج ٢، ص ٣٩٠.

فرصة اللذة الطويلة وإهماله البعض الآخر في إلقاء النظرة إلى الناس الباكين والبائسين:

يا دهـــــرُ رفـــق ولاتدر: ساعـــاته في هينـة وقفـــى
حتى تتـاح هنـاءةُ العمـرِ وتطول لذتُهـا لمقتطـــفِ
هـلا التفتَّ لـذلك الكـونِ وعلمت كم في الناس من باكي
يدعوك خذني والأسى المضنيْ خـلِّ الممتـعِ وامضِ بالشـاكي
هذا النعيم وهـاته المـحنُ يتنافسـان الدهـــر إقلاعـــا
فبأي عدلٍ أيهـا الزمـــنُ تتشـابهُ الحـالان إســراعـا[١١٥]

ويشكو الشاعر عبد الرحمن شكري من الدهر لأكل مال الغني وسلب قواه حتى أصبح حظّه مثل حظ الفقير لأن الدين أثقله وجار عليه الدهر:

أكل الـدهر مالـه وقـواه فغدا حظـه كحظ الفقـير
أثقل الدين ظهره وعدا الدهـ ـر عليـه بقسمة المقمـور
فغدا يائسـا تكـــاءده الهـ ـمّ ببـال جو وجـد عثور[١١٦]

ويذكر الشاعر شاكيا ومتحيّرا من تقلّب الدهر وغرته ببعض المنى وإشقائه ببعض المصائب، ويتساءل عن كيفية حل التوتّر النفسي الشديد لسبب استرخاء الدهر وتخويفه. ويتساءل ماذا يفعل الناس بسلوك الدهر؟ هل هم يحزنون أو يفرحون؟:

عجبت لهذا الدهر إمّا يغـرّنا ببعض المنى حتى يرجى حميده
وإمّا شقاء ليس يرجى نفـاد تمر علينـــا خيلـــه وجنوده
أنضحك أم نبكى وهذا زماننا عجيب لدينـا وعده ووعيده[١١٧]

وكذلك يتألم الشاعر أيضاً من صروف الدهر ويقول إنها سلبت حزمي وثقتي وقوّتي كسلب البقاء من البهاء:

وقد غلبت صروف الدهر حزمي فجالـــدت المصـائب بالنجـاء
وقد سلبت صروف الدهر منـي كما سلب البقاء من البهـــاء[١١٨]

١١٥- **شعر إبراهيم ناجي**، الأعمال الكاملة، ليالي القاهرة، ص ١٢٠.
١١٦- **ديوان عبدالرحمن شكري**، ص ٢٣، ٢٤.
١١٧- المصدر نفسه، ص ٧١.
١١٨- المصدر نفسه، ص ٦٥.

ويقول شاكيا من مكايد الدهر وصوره التي يقوم بها للتخريب وإنشاء المشاكل والمصائب. ولا يكون أحد مأمونا وسليما فيه، وأصبح الدهر سجنا لكل حي:

صور للدهر يعرضهـــا ثم تخفى وهو مـدجـون
كم ترى في العيش ذا وجل أي شيء فيـه مـأمـون
دهـرنا دار المجـانين كل حي فيـــه مسجـون(١١٩)

- **الكوارث الطبيعية:**

هي ابتلاء أو دمار كبير يقع بسبب الحوادث الطبيعية الطارئة، وهي حوادث غير متوقعة ناتجة عن قوى الطبيعة كالسيول والزلازل والعواصف وغيرها، وقد يحدث بسبب فعل الإنسان ويدمّر الممتلكات نحو الحريق. وتؤثّر مثل هذه الحوادث تأثيرا بالغا على الاقتصاد الوطني والحياة الاجتماعية. وقد تقلّ الموارد الوطنية لمواجهة الكوارث الطبيعية وتحتاج الدولة إلى المساعدة الدولية. وواجه الناس في النصف الأول من القرن العشرين مثل هذه الكوارث وعبّر الشعراء عنها في شعرهم شاكين. فأحمد شوقي يقدّم الشكوى المريرة من الزلزال الذي وقع في اليابان عام ١٩٢٥م ويصوّر تصويرا مؤلما لتدمير البلد، فهدمت مساكن أهل هذا البلد، فجاءت الطوفان من السماء والأرض الذي كان أشد من طوفان نوح عليه السلام:

قف بطوكيو وطف على يوكهامه واسأل القريتين كيف القيامـــه
دنت الســـاعة التي أنذر النا س وحلت أشراطها والعلامـــه
خُسفت بالمساكن الأرض خسفـا وطوى أهلها بســـاط الإقامـــه
طوّفت بالمدينتين المنـــــايا وأدار الردى على القوم جـــامه
أتت الأرض والسمـاء بطوفا ن يُنسّي طوفان نـوح وعـــامه
فترى البحر جن حتى أجـاز الـ ـبر واحتـــل موجـــه أعلامـه
مزبدا ثائر اللجـــاج كجيش قوض العاصف الهبوب خيامـه
لبّست هذه الحيـاة عليـــنا عالم الشـــر وحشه وأنامـه(١٢٠)

ويصف الشاعر شاكيا حالة النساء المؤلمة في نكبة دمشق عام ١٩٢٥م وحيرتهن بين القذائف والمنايا، فيقول:

١١٩- المصدر نفسه، ص ٢٦٥.

١٢٠- أحمد شوقي، **الأعمال الشعرية الكاملة**، دار العودة، بيروت، (بدون تاريخ)، ج ١، ص ٨٥، ٨٦ .

سـلام من صبا بردي أرق ودمعٌ لا يكُفكَفُ يا دِمَشْقُ
إذا رمن السلامة من طريق أتت من دونه للموت طرق
بليـل للقـذائف والمنايا وراء سمـائه خطف وصعق
إذا عصف الحديد احمرّ أفق على جنباته واسودّ أفق(١٢١)

ويشكو الشاعر حافظ إبراهيم يتساءل عمّا حدث لـ: "مسينا" من الهلاك والدمار بسبب الزلزال، ويتألّم بأحوال المدينة مصوّرا، وقد تشققت الأرض بسبب هزات الزلزال فانهدم كل ما كان عليها وتألبت أمواج البحر فأغرقت تحتها مدينة "مسينا"(١٢٢)، فبادت جميع الأشياء على الأرض في ثوانٍ وكأنها ما كانت موجودة أصلا، فقد جاء أمر الله وقضاؤه وصارت نسيا منسيا بعد أن كانت من أجمل البلدان:

ما لمسِّين عوجلت في صبا ها ودعاها في الردى داعيـــــان
خسفت ثم أغرقت ثم بـادت قضي الأمر كلـه في ثوانـي
وأتى أمرهـــا فأضحت كأن لم تك بالأمس زينة البلدان(١٢٣)

ما لمسِّين عوجلت في صباها: شبه الشاعر مدينة مسينا بالامرأة الشابة التي كادت أن تموت، وحذف المشبه به وأبقى شيئا من لوازمه (صباها). دعاها في الردى داعيان: استعارة مكنية شبه الشاعر المدينة بالمرأة التي تستجيب دعوة الداعي. إن الشاعر قدّم مشهد الدَّمار على ظهر الأرض ما يوحي بمحو شعائر المدينة "مسينا" من وجه الأرض بسبب الزلزال. ويشبّه هذا المشهد بالفتاة المجروحة خلال الزلزال بسبب هدم البيوت ممّا كادت أن تموت. فهذه صورة كلية قدّمها الشاعر لبيان تخريب المدينة. وفي البيت الأخير اقتبس الشاعر من الآية القرآنية: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾(١٢٤) ليعبر عن قضاء الله ونهاية الإنسان المؤلم ليقنعه بقضاء ربه. وهو يشكو أيضاً من مظاهر الطبيعة التي دمّرت المدينة التي كانت من أجمل المدن المتطورة. وشاركت كلها في تخريب هذه المدينة الأنيقة وأهلها، حيث ابتلعتها الأرض، وطمست الجبال، وأغرقتها البحار، وخرّبها ودمّرها، وأرسل الموت جنوده بماء البحر

١٢١- المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٣.

١٢٢- تقع مسينا على الزاوية الشمالية الشرقية لجزيرة صقلية، على الضفة الغربية لمضيق مسينا، ضربها زلزالان مدمران: الأول عام ١٧٨٣م والثاني عام ١٩٠٨م فضلاً عن تعرضها لقصف الحلفاء عام ١٩٤٣م، وفي كل مرة يعاد بناؤها، ميناؤها من أكبر الموانئ في البحر المتوسط. انظر: http://ar.wikipedia.org/wiki .

١٢٣- **ديوان حافظ إبراهيم**، ص ٢١٦.

١٢٤- سورة النحل، الآية: ١.

وبتراب الأرض. وكل ذلك صال على مسينا. وكذلك استعان الموت بالنيران، واستدعى السحب ليستحيل التخلص من هذا القضاء المحتوم وتنهار عزائم الشجعان في مواجهة الموت:

بغت الأرض والجبال عليها وطغى البحر أيّما طغيـــان
فهنا الموت أسود اللون جون وهنا الموت أحمر اللــون قاني
جنّد الماء والثرى لهـــلاك الخلق ثم استعان بالنيـــران
ودعا السحب عاتيا فأمدته بجيش من الصـواعـق ثاني
فاستحال النجاء واستحكم اليأس وخارت عزائم الشجعان(١٢٥)

فهنا الموت أسود اللون جون: كناية عن الناس الذين احترقوا بالنار المشتعلة. وهنا الموت أحمر اللون قاني: كناية عن الناس الذين قتلوا وجرحوا وكانوا ينزفون دماءهم لسبب الزلزال والسيلان والحريق. يريد الشاعر أن يثير عواطف المتلقي للمشاركة في هذه الكارثة العظيمة. ويعبر الشاعر حافظ شاكيا ومتألّما عن الدمار الذي حدث في مسينا، ويرسم صورة مؤلمة لهذه المدينة المدمّرة مبيّنا أن الأطفال سقطوا تحت الأنقاض ينادون مستغيثين بأبيهم وأمهم، وقد اشتعلت النيران بفتاة جميلة فكأنها تشوى على الجمر، وفقد الأب عقله من همّ هذه الكارثة العظيمة وما شاهد يمشي مسرعا في حزن وجنون لإنقاذ أطفاله الأبرياء. والنيران أحاطت به من جميع الجوانب وكانت تحرق جسده كله، ولقد امتلأت الأرض بجثث الناس وضاق البحر بها، ورفعت النسور والحيتان صدى الشكوى لكثرة الجثث الملقاة في كل مكان:

رب طفل قد ساخ في باطن الأرض ينـــادي أمـي أبـــي أدركاني
وفتاة هيفاء تُشوى على الجمـر تعاني من حـــــره مـــا تعـاني
وأب ذاهل إلى النـــار يمشـــي مستميتا تمتد منـــه اليـــدان
باحثا عـــن بنـــــاته وبنيـــه مسرع الخطو مستطـير الجنان
تأكل النـــار منـه لا هـــو نـاج من لظاها ولا اللظى عنـه واني
غصت الأرض أتخم البحـر ممـــا طوياه من هذه الأبـــــدان
وشكا الحوت للنســـور شكاة رددتها النســـور للحيتـــان
لهف نفسي وألف لهـف عليهـا من أكف كانت صناع الزمان(١٢٦)

١٢٥- المصدر نفسه، ص ٢١٧.

١٢٦- **ديوان حافظ إبراهيم**، ص ٢١٥.

واختار الشاعر أسلوبا خبريا لتقرير المشهد المؤلم: ربّ طفل: يدل على كثرة الأطفال. قد ساخ: أتى الشاعر بفعل ماض ليبثّ الحادثة العظيمة بسبب سيخ الأطفال في باطن الأرض. ينادي: حال في الجملة يدل على صياح الأطفال من بعيد لاستمداد، وهذا فعل مضارع يدل على استمرار حالتهم السيئة. أمي وأبي: أقرب إلى الإنسان وأشفق عليه في هذا العالم هو الأم والأب اللذين ينسيان أنفسهما وراحتهما في رعاية الأولاد، ومنهما الأم التي تضحي بنفسها على طفلها، ولهذا ذكرهما الشاعر أولا مراعيا العواطف الرقيقة للأطفال لأجل مسا عدتهم أثناء الكارثة العظيمة. وقدّم الأم لأنها أقرب الطفل من الناس جميعا. ونسبهما إلى ياء المتكلم في أسلوب النداء للتحبب والتقرب. أدركاني: اختار الشاعر أسلوبا إنشائيا فعل الأمر والغرض منه الطلب والرجاء والاستعطاف في هذه المشكلة. وفي هذه الأبيات كلها يتوجّع الشاعر فيما أصاب بها هذه البلدة وأهلها، وتدمّرت مسينا ومبانيها الرائعة الشاهقة بسبب هذا الزلزال العنيف. وقول الشاعر على بحرالمتدارك:

وأب ذاهل إلى النـــار يمشي مستميتا تمتد منه اليـــدان[١٢٧]

فعلن فاعلن فعولن فعولن فاعلن فعلن فاعلن فاعلن فا

فالألفاظ تؤدي معنى الهمّ والحزن. وموسيقى الكلمات تناسب جدّا الإيحاء بالهموم لفقد عقول الآباء باحثين عن أولادهم مسرعين إلى النار دون خوف لشدّة لظاها. والأصوات المدّة تشير إلى امتداد الحريق في مسينا وازدياد حزن الآباء للبحث عن أبنائهم. وكرّر الشاعر الحروف كحرف "النون" و" الحاء" واللام" ما تحمل معنى الهموم والأنين ما يذوب الإنسان من داخله، ويدفعه إلى الموت. يوحي حرفا"الدال والباء " بوقع حاد متواتر في قاع بحر الهموم. ويشكو الشاعر ممّا جرى على البلاد من نكبات وويلات في ظل الاحتلال البريطاني. ويشكو من ضراوة الحريق المدمر الذي أتى على مدينة "ميت عمر"سنة ١٩٠٢م[١٢٨].

سائلوا الليل عنهم والنـــهارا كيف باتت نساؤهـم والعذارى

كيف أمسى رضيعهم فقد الأم وكيف اصطلى مع القوم نارا

كيف طاح العجوز تحت جدار يتداعى وأسقف تتـــــجارى[١٢٩]

١٢٧- **ديوان حافظ إبراهيم**، ص ٢١٨.

١٢٨- **في الأدب المعاصر في مصر**، ص ١٣٥.

١٢٩- **ديوان حافظ إبراهيم**، ص ٢٥٠. **وفي الأدب المعاصر في مصر**، ص ١٣١.

يظهر من هذا أن حافظ إبراهيم كان شاعر الوطن، والمدافع عن حقوقه في وقت الشدة. وحقا نال لقب شاعر النيل.

ويشكو إبراهيم طوقان من الطوفان الذي طغى على مدينة "نابلس"(١٣٠) وضواحيها سنة ١٩٣٥م، يشكو إلى الله حلول المصيبة بالمدينة إبراقا وإرعادا، وزلزالها بالهزّة والشدة التي تلهب الأكباد:

حلّ الوبال بعيبال فهال بـــه ... ياهيبة الله إبراقا وإرعـــادا
في جارف كعجيج البحر طاغية ... أمواجه تحمل الأسواق إمدادا
ولا تزال من الزلزال باقيـــة ... تذكارها يوقد الأكباد إيقـــادا(١٣١)

ويشتكي الشاعر من القضاء لتدمير البلد الآمن بالزلزال وجعله طللا دارسا من الأطلال:

بلـــد كان آمـــنا مطمئنـــا ... فرمـــاه القضـــاء بالزلـــزال
هـــزّة إثر هـــزّة تركـــته ... طلـــلا دارســـا من الأطلال
مادت الأرض ثمّ شبّت وألقت ... ما على ظهـــرها من الأثقال(١٣٢)

ويقدّم الشاعر معروف الرصافي الشكوى من النار الملتهبة التي جعلت دار السعادة دار شقاوة:

بل قد عفتها(١٣٣) ولم تترك بهـا أثرا ... ريح لهـا من لهيب النـار أذيـــال(١٣٤)
شبّ الحـــــريق بها ليلا مشيدة ... فما أتى الصبح إلا وهي أطـــلال
أثارت النار في أطرافها رهجاً(١٣٥) ... من الدخان كأنّ النار أبطـــــــال
دار السعادة أمست من تحرّقها ... دار الشقاء وقد ضاقت بها الحال(١٣٦)
فما باله يمسي ويصبح شاكيـا ... ولايتحـاشى عن ظلامته الخلق(١٣٧)

١٣٠- تقع مدينة نابلس بين جبلين: عيبال في الجهة الشمالية وجرزيم في الجهة الجنوبية. انظر: **ديوان إبراهيم طوقان** مع دراسة متخصصة لزكي المحاسني، ص ٣٤٨.

١٣١- هوالزلزال الذي وقع سنة ١٩٢٧م. وقد خسرت فيه نابلس الكثير من الأرواح والأموال. انظر: المصدر نفسه، ص٣٤٨، ٣٤٩.

١٣٢- **ديوان إبراهيم طوقان**، ص ٤٥٠.

١٣٣- عفتها: درستها ومحتها. **ديوان الرصافي**، ج ١، ص٢٩٠.

١٣٤- هذه القصيدة قيلت في حريق شب في حارة الفاتح من مدينة إستانبول. وهو حريق هائل اجتاح عدة حالات. فتركها قاعا صفصفا. انظر: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٠.

١٣٥- الرهج: غبار الحرب. انظر: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٠.

١٣٦- المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٠.

١٣٧- المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠١.

- **شدّة البرد والحر:**

ويقدّم الشاعر جبران خليل جبران الشكوى من البرد وما أتى به السقم والضعف:

وبي أضعاف ما يشكـــو من البرجاء والسقـــــم(١٣٨)

يقدّم الشاعر خليل مطران الشكوى من شدّة الجوّ وتصرّفاته وتقلّباته وتأثيره المؤذي على صحة الإنسان التي تؤدّي إلى تخريب نظام الحياة البشري. وكل واحد من الناس مصاب بعلّة الحلق والصدر بشدة الحرّ والبرد:

لَيسَ فِي الجَوِّ اعْتِدَالٌ هُوَ قـــرٌّ ثُمَّ حـــــرٌّ
هُوَ حَالٌ ثُمَّ حـــــالٌ هُوَ حَـــرٌّ ثُم قـــــرٌّ
كُلُّ مَنْ تَلْقـاهُ يَشْـكُو عِلَّتـــي حَلْقٌ صَـــدْرُ
وَالأَذَى مَا فِيـــه شَكٌّ جَاءَهُ منْ حَيْثُ يَدْرِي(١٣٩)

وهناك حكمة في تغير الفصول، وهي تحافظ على صحة الجسم وقوته وسلامته، ولا تصيب بمشاكل صحية وعقلية ونفسية خطيرة. ويؤثّر جو المكان تأثيرا عميقا في حياة الإنسان ونفسيته وعقله. ولذا يبالغ بعض الشعراء أحيانا في الشكوى من شدة البرد والحر بسبب حسّهم المرهف.

وكما يذكر الشاعر معروف الرصافي الشكوى من الحرّ وشدّته وتأثيره المؤذي والمؤلم الشديد على صحة الإنسان حتى كاد أن يأكل الناس، وكأن الشمش تقدّد الأجساد والأرض تحرقها بسخونتها.

قد كاد بالحـرِّ هذا اليوم يَصهـــرنا إذ قد بدا فيه للرمضاء تسعـــير
كأنما الشمس جاعت فهي من سَغب تشوي الجسوم لها والأرض تنور(١٤٠)

ويعبر الشاعر أيضاً شاكيا عن شدّة البرد الذي يلدغ الإنسان ويشير إلى الهواء البارد الذي يلسع الوجوه كالعقارب. وكلّ شيء جامد بشدّة البرد:

لله يومُ جـــــاءَ يَلسعُ بَردُه فكأنَّ ذرَّاتِ الهواءِ عَقـــاربُ
لم تلقَ شيئاً فيه ليس بجامِد إلا احتمال فيـــــــــه فذائب(١٤١)

١٣٨- **ديوان خليل جبران**، ج ١، ص ٨٩. "أريه وجه مبتسم".

١٣٩- **ديوان خليل مطران**، ج ٢، ص ١٩٦.

١٤٠- **ديوان الرصافي**، ج ٢، ص ٥٤٤.

١٤١- المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٤٥.

نتائج البحث:

إن الشكوى تعبير صادق عن شعور الإنسان، وذكرت في التمهيد مفهوم الشكوى لغة واصطلاحا، وطرق التعبير عن الشكوى. ثم تحدّثت عن الشكوى إلى الله في النصف الأول من القرن العشرين. تتنوّع قضايا الشكوى إلى الله ولهذا قسمتها إلى فرعين: وفي الفرع الأول تكلّمت عن الشكوى إلى الله مباشرة. لأن الشعراء شكوا لمصائبهم خاصة للفقر والجوع والمرض، لأنه هو الملجأ والمعين. وهذه الشكوى مشكورة لأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يعين خلقه وعباده ويرفع عنهم الشكوى. وفي الفرع الثاني: ذكرت شكاوى الشعراء من القضاء والقدر والموت والمرض ونوائب الدهر والكوارث الطبيعية. وهذه الشكوى مدحورة ومعيبة لأنها تدل على عدم رِضاهم واعتمادهم على قضاء الله وقدره بسبب اعتقادهم الخاطئ وسوء تخمينهم وحدسهم بالله.

يمكن أن نسمي النصف الأول من القرن العشرين عصر الصحوة والنهضة وبعث الأمل في النفوس المتألمة، بعد الانحطاط السياسي والإخفاق الروحي والعقلي بسبب الحروب. ولا سيما ما أخفقت الحربان العالميتان: الأولى والثانية في جانب حقوق المسلمين.

إن شعر الشكوى غرض من الأغراض الشعرية التي طرقها كثير من الشعراء. ولها تأثير كبير وأثر فعّال في حياة الناس لإحياء القيم الإنسانية والثوابت الوطنية والمبادئ الأخلاقة والأهداف النبيلة والوطنية العظيمة استغاثه بالله لكشف الضرّ عنهم وتحقيق معونتهم.

إن طبيعة الإنسان تختلف في التجاوب والتفاعل من الأشياء والأحداث حوله. ولهذا اختار الشعراء الطرق المتعددة لإبعاد الملمات عنهم وتحقيق الأمن والسلامة والآمال الشخصية حسب فطرتهم لإثارة رحمة الله لكشف الضرّ رجاءً وأملاً لرفع الظلم عن المسلمين واسترداد الحق لهم، وتحقيق آمالهم، لأن المشكوّ إليه قادر على إزالة الشكاية ورفضها، واحتجاجا ويائسين بسبب ضعف إيمانهم بالله، وبكاء وأنينا عند العجز في الحصول على حقهم وتحقيق أمنيتهم. ولجأ الشعراء إلى الله عند الضيق والنوائب استعطافا واسترحاما لأن الله تعالى هو الملجأ والمعين وذو القوّة المتين، وهو يقدر على إزالة همومهم وتسديدهم وتحقيق معونتهم. فاستخدم الشعراء أبرز الظواهر الأسلوبية في شعرهم. وإن الكلمات والعبارات تبعث صوراً حية، وتدل على شيء من الانفعال والخلق المراد. ورأينا أن الشعراء يميلون إلى الأسلوب الخبري في الغالب الأعم بينما يعتمدون الأسلوب الإنشائي. وكان للأسلوب الإنشائي دور بارز دون الخبري من استفهام وأمر ونداء، وأخذ حظا كبيرا في شعرالشعراء الشاكين من خلال التكرار وقدرتهم في التعامل مع الكلمة والجملة.

ونجد الشعراء في النصف الأول من القرن العشرين أنهم قرضوا شعر الشكوى على البحور المتعددة كالطويل والخفيف والمتدارك حسب أغراض الشكوى مدّا واتساعا وطولا وقصرا على التفعيلات الأصلية وأحيانا ناقصة ما يوحي بالأفكار والتجربة الشخصية وقوة الإدراك عن طريق الصور، ورشاقة اللفظ وعذوبة الجرس. وكما التزموا بالقافية وحروف الروي لتقويم الفكرة. واستخدم أكثر الشعراء القوافي المطلقة (المتحركة) والمقيدة (الساكنة) ما يوحي إلى طول المدى النفسي عندهم. وكما نظموا في الأشكال المتعددة كالمزدوج والمربع والمخمس.

إن شعر الشكوى يتسم بالمميزات الفنية صورة وعبارة وموسيقَى. وأجاد الشعراء في انتقاء المفردات واختيار الألفاظ والتدفق في التعابير الغنية بالمعاني. وبدت الموسيقى الشعرية جلية وعذبة في ألفاظهم وتراكيبهم. وأتى شعرهم قمة في الرونق والعذوبة والأصالة. ويمتاز شعر الشكوى بالسهولة والبعد عن التكلف والتصنع. وشعرهم الشكوي في هذا العصر ممتلئ بالألحان المتنوّعة والعاطفة المتوقدة والخيال المحلق والصور الشاملة للنفس والحياة والمجتمع والطبيعة.

ومما سبق يظهر أن الشعراء لجأوا إلى الله عند الضيق والنوائب استعطافا واسترحاما، لأن الله هو المأوى والنصير وذو القوّة المتين، وهو القادر على إزالة همومهم وتسديدهم وتحقيق معونتهم.

Abstract

Complaint to Allāh (SWT) in contemporary Arabic Poetry

It is natural for man to look for means of catharsis in the hours of trouble and misery that affact his feelings and emotions.

This kind of self-expression in Arabic Poetry appearing during the first half of the twentieth century has been discussed in this paper. After dealing with linguistic meaning and literary counotations of complaint *(shakwā)*, the paper proceeds to analyze various specimens from the Arabic Poetry produced during the first half of the last century. Tracing the theme of complaint in the works of prominent poets, the author finds an abundance of this content in the target period. The paper highlights various stylistic modes of registering complaint to Allāh (SWT) adopted by different poets and finds it as one of the major themes of Arabic poetry during this period on account of its social peculiarities.

****